المحور الثاني
المظاهر الحضارية لمملكة مالي

1. في ميدان التعليم:

إن التعليم في مملكة مالي كان في البداية يتم عن طريق الكلمة فقط، أي عن طريق الرواية الشفوية التي كانت تحفظ عن ظهر قلب، وتتوارثها الأجيال وتلقن عن طريقها العلوم والمعارف[1]. لكن مع مجيء ذلك الجيل من الملوك الحجاج واحتكاكهم بالحضارة الإسلامية في المغرب والمشرق، بدؤوا يتعرفون على الطرق التعليمية الجديدة، وأخذوا ينقلونها إلى إمبراطوريتهم التي كانت تتهيأ لأن تكون إحدى أقطاب الثقافة العربية الإسلامية.

وكان أساس التعليم الذي ركز عليه ملوك مالي يقوم على تعليم القرآن، الذي يعد أساس التعليم، وتدور حوله مختلف المناهج من لغة وفقه وتفسير وأصول وتاريخ[2]. وكان التعليم في البداية يقتصر في أول الأمر على الأساتذة العرب والبربر القادمين من المغرب الإسلامي، وبعد مدة تكونت طبقة من المعلمين السودانيين الذين تخرجوا من مختلف المدارس المشرقية والمغربية، وكان دورهم في البداية يقتصر على تعليم ملوك مالي القرآن وبعض شرائع الإسلام، وكانوا يتلقون مكافآت على ذلك[3].

و يبدو أن مهمة هؤلاء المعلمين كانت تشمل تعليم ملوك مالي اللغة العربية، وهذا من خلال إجادة كل من منسا موسى وأخوه سليمان للغة العربية، رغم أنهما لم يكونا يتقنان حتى لغات ولهجات الشعوب التي يحكمونها، بحيث كانوا يتحدثون للوافدين عليهم من رعيتهم عن طريق ترجمان[4].

وقد تأثر التعليم في مالي بطبيعة التكوين الديني لهؤلاء المعلمين، حيث اقتصر على العلوم الدينية بالمدارس القرآنية التي تشبه الكتاتيب في بلدان المغرب العربي، والتي كانت تنتشر في المدن الكبرى كولاته، جني، تمبكتو، غاو، نياني وغيرها، والتي كانت تمثل صورة طبق الأصل لنظيراتها في مكة، الكوفة، القاهرة أو فاس[5]. فكانت تستقبل الأطفال منذ نعومة أظافرهم، وتلقنهم تهذيبا دينيا سليما، ويحفظ لهم القرآن الكريم وتدرس لهم اللغة العربية حتى يتمكنون من كتابتها، كما كانوا يدرسون بعض المواد العلمية[6].

أما نظام التعليم فقد كان يتميز بالصرامة الشديدة، وكثافة البرامج، حيث كان في جني مثلا يخرج المعلم من بيته إلى المسجد في منتصف الليل، فيبدأ الحصة ويجلس حوله الطلبة، فيتابعون الدرس إلى غاية صلاة الصبح، ، وعند نهاية الصلاة يعودون إلى أماكنهم إلى غاية منتصف النهار أين يعود المعلم إلى بيته، ثم يعودون إلى الدراسة بعد صلاة الظهر، وتنتهي

---

(4) Devey (Muriel) : La Guinée, Editions Karthala, Paris, 2009, p285.

(5) **Raymond(Mauny**) :Tableau géographique de l'ouest Africain au moyen âge. Editions Ifan, Dakar, 1961, p528.

(3) قداح نعيم:حضارة الإسلام و حضارة أوربا في إفريقيا الغربية، ص 160.

(4) أنظر ابن بطوطة : المصدر السابق، ص 684.

(5) قداح نعيم:المرجع السابق، ص 160.

(6) باري (محمد فاضل) و كريدية (سعيد إبراهيم): المرجع السابق، ص 105 .

الحصة مع صلاة العصر[7]. كما كان الآباء يحرصون على حفظ أبنائهم للقرآن وكانوا يعاقبون أبناءهم عليها أشد العقاب كما يخبرنا بذلك ابن بطوطة[8]. وكان الفقيه الحاج التمبكتي، الذي تولى القضاء بتمبكتو في أواخر عهد دولة مالي كان قد أصدر أمر بقراءة نصف حزب من القرآن بعد صلاتي العصر والعشاء في جامع سنكري[9].

وبالنسبة لمرحلة التعليم الثانوي فكان يتخصص فيها الطالب لدراسة علوم القرآن وتفسيره، بالإضافة إلى دراسة مواد أخرى مثل الفقه والحديث والفكر الإسلامي والأخلاق الإسلامية والأدب العربي، كما كانوا يدرسون الطب والجراحة وعلم الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء واللغات والتجارة[10]. بعد ذلك يتدرج الطلبة في مناهج أخرى لتشمل حلقات درس وندوات تجري فيها مناقشات فقهية، وفلسفية حيث يُدَرَّس لهم منطق أرسطو ومقامات الحريري[11]. كما كانوا يدرسون الفقه المالكي لخليل بن إسحاق[12]. وكانت دراسة النحو تقوم على الاستنتاج، إذ يقرؤون النص الأدبي ويناقشونه من خلال بعض المسائل النحوية ثم تستخرج القاعدة[13].

بعد ذلك تأتي المراحل العليا من التدريس في تمبكتو وفاس والقاهرة وهو ما يعادل التعليم الجامعي، حيث يتم التدريس في هذه المرحلة على أساتذة مرموقين في مجال التعليم الإسلامي، هنا يصبح المنهاج أكثر تخصصا وعمقا في البحث، حيث كان الأستاذ يطرح على الطلبة مسائل تتعلق بشتى المواضيع، وكان على الطالب تقديم حلول لها مدافعا عن رأيه بالحجج والبراهين وذلك أمام عدد من زملائه الطلبة وأساتذته، كما يتدربون خلال هذه المرحلة على تزكية النفس ليكونوا نموذجا صالحا للأجيال المقبلة. أما التخرج فيتم بعد التأكد من تفوق الطالب في المعرفة والأخلاق الإسلاميين، فيعطى بعدها عمامة مزينة بالعقد والدوائر التي ترمز إلى أسماء الله الحسنى، أما العمامة فكانت ترمز إلى الحد الفاصل بين العلم والحكمة والمعرفة والخلق الحسن[14].

وكان التعليم الجامعي يتم في جوامع عديدة منها جوامع تمبكتو التي كانت ذات شهرة كبيرة وخاصة مسجدها الكبير الذي يعد أقدمها وأكبرها، وإن كنا لا نعرف تاريخ تشييده على وجه التحديد، لكن الأكيد هو أن هناك مسجد أقيم فوق موقعه خلال القرن السابع للهجرة/13م، والراجح أن بناءه لأول مرة كان في مطلع القرن السادس للهجرة /12م على وجه التقريب، أي في الفترة التي وجدت فيها مدينة تمبكتو واستقرار المسلمين فيها، وجدده

) **7**(Cuoq (Joseph) :Op.Cit. p91.

(8) انظر المصدر السابق،ص 691.

(9) البرتلي الولاتي (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق): فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور. تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،طبعة أولى،1981م،ص 88 ؛ السعدي، المصدر السابق، ص 27 .

(3) باري(محمد فاضل) و كريدية(سعيد ابراهيم)، المسلمون في غرب إفريقيا، تاريخ وحضارة. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007م، طبعة أولى ، ص 105

(4) قداح نعيم،حضارة الإسلام وحضارة أوربا في إفريقيا الغربية. الشركة الوطنية للطباعة والنشر، الجزائر، طبعة ثانية، 1975م.، ص 161 .

) 12(Cuoq (Joseph) ,Op.Cit. p126.

(13) قداح نعيم،المرجع السابق، ص 161.

(14) باري(محمد فاضل) و كريدية(سعيد إبراهيم): المرجع السابق، ص 105 .

فيما بعد منسا موسى عن عودته من الحج[15]. وكان نظام التعليم في تمبكتو يتميز بمستوى عال لا يقل عن الجامع الأزهر وجامع الزيتونة والجامع الأموي أو غيره، فكانت تعقد فيه حلقات العلم يتشاور فيها الأئمة والأساتذة والعلماء فيما بينهم بين أروقة الجامعة لمعالجة المسائل التي ترسل إلى السلطات الحكومية للتقيد بها[16].

أما الكتب المتداولة لدراسة بهذه الجامعة فهي نفسها المتداولة في الجامعات الإسلامية الكبرى مثل كتاب الشفا للقاضي عياض، مدونة القاضي سحنون، مختصر ابن الحاجب الفرعي، تهذيب البرادعي، جمع الجوامع القرطبية، جامع المعيار وهي كلها في الفقه المالكي، بالإضافة إلى ألفية بن مالك في النحو وتلخيصها للسيوطي، ألفية السيوطي، صحيح مسلم والبخاري، سيرة بن هشام وتفسير الجلالين، وغيرها [17].

وعموما فقد كان مستوى التعليم عال جدا في جامعة تمبكتو إلى درجة أن عبد الرحمان التميمي الذي جاء من أرض الحجاز مع منسا موسى، لما سكن تمبكتو أدركها حافلة بالفقهاء السودانيين، ولما رأى تفوقهم عليه في الفقه رحل إلى فاس وتفقه فيها، ثم رجع إلى تمبكتو فاستقر فيها.[18]

كما انتهجت جامعة تمبكتو سياسة تقوم على التبادل العلمي بينها وبين الجامعات والمعاهد في البلدان الإسلامية الأخرى في المغرب والأندلس والصحراء الكبرى، ولما كانت معاهد المغرب أعرق منها فقد حرص ملوك مالي على إرسال طلبتهم إليها، حيث قام منسا موسى بإرسال العالم كاتب موسى الذي كان إماما ومدرسا بجامع تمبكتو إلى فاس ليتلقى المزيد من العلوم الإسلامية وذلك بأمر من السلطان الحاج منسا موسى[19].

وعندما اشتهرت هذه المعاهد وفد عليها كثير من الطلبة من بقاع شتى من السودان الغربي لتلقي العلم على مشايخها ومنهم الفقيه مخلوف بن علي البلبالي، ومن إقليم ودان وفد عليهم سيدي أحمد الغزالي بن محمد بن يعقوب الحاجي اليعقوبي السوداني الذي تتلمذ على يد والد أحمد بابا التمبكتي[20]. وعندما زار ابن بطوطة إمبراطورية مالي خلال فترة حكم منسا سليمان التقى عددا من علماء المغرب ومصر المقيمين بمالي، منهم محمد بن الفقيه الجازولي، وشمس الدين ابن نقوش المصري، وعلي الزودي المراكشي الذي قال عنه بأنه كان من الطلبة[21].

كما جذبت جامعة تمبكتو في عهد مملكة مالي بعض علماء الأندلس أمثال علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الوادي آشي (المتوفى عام 724هـ /1323م) وهو والد ابن الملقن التكروري (توفي 804هـ /1401م) صاحب كتاب طبقات الأولياء، وقد مارس التدريس لمادة

---

(15) معتز ياسين: جوامع تمبكتو في مالي. مقال صدر في مجلة الوعي الإسلامي، الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، العدد 523.

(16) باري(محمد فاضل) وكريدية (سعيد إبراهيم): المرجع السابق، ص 105 .

(17) معتز ياسين: المرجع السابق.

(18) البرتلي الولاتي: فتح الشكور، ص 176.

(19) السعدي: المصدر السابق، ص 57 ، - Yattara el Mouloud :Op.Cit

(20) أحمد بابا التنبكتي:نيل الابتهاج في تطريز الدباج، إشراف و تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس،1989م، جزءان، ص 608.

(21) المصدر السابق،ص 681 .

اللغة العربية قبل أن يرحل إلى القاهرة[22].وهناك بعثة تعليمية انطلقت من تمبكتو المالية إلى بلاد الهوسا والبرنو كانت تظم طلبة من الونغارة (لذلك سميت بالبعثة الونغارية) و كانت تضم ركائز معاهد تمبكتو، فأخذ العلماء التمبكتيون منذ ذلك الحين يتوافدون على بلاد الهوسا والبرنو أمثال الفقيه مخلوف البلبالي، والتاذخني، ومنهم من أسس معاهد تعليمية في هذه المنطقة، مثل معهد الحنبليين في كاتسينا[23].

2. نشرهم اللغة العربية :

لقد كان القرن الثامن للهجرة عصر القوة، وكذا عصر التعريب لإمبراطورية مالي، وذلك بفضل المجهودات التي قام به منسا موسى من أجل نشر لغة القرآن في ربوع المملكة، والتي كانت تندرج ضمن مشروعه الثقافي الكبير الساعي إلى جعل إمبراطورية مالي ليس جزءا فقط من العالم العربي الإسلامي، وإنما عنصرا فعالا في حضارته. وكما اهتم بإرسال الطلبة إلى جامعات القاهرة وفاس، وحرص على جلب أمهات الكتب العربية إلى بلده، فإنه أسس عند عودته من الحج سنة 1325م/725هـ مدرسة في مدينة نياني لتعليم اللغة العربية والقرآن[24].

فكان هذا الملك يتقن اللغة العربية قراءة وكتابة، وكان يداوم على قراءة القرآن باللغة لعربية، فقد أخبر ابن أمير الحاجب أبا الفضل العمري بان منسا موسى كان يجيد التكلم باللسان العربي،[25] والأكيد أنه لما ذكر كلمة إجادة كان يعني بها الإتقان. وكانت مراسلات منسا موسى مع سلاطين المماليك بمصر بخط عربي تراعى فيه أصول وقوانين الأدب العربي، وكان يكتبها له خاصته من الماليين.[26]

أما في عهد منسا سليمان فقد تحولت اللغة العربية إلى لغة رسمية للإمبراطورية المالية إلى جانب اللغة المالنكية[27]. حيث انتشر في عهده الخط العربي وخاصة الخط المغربي الفاسي[28] الذي يكون قد جلبه معهم إلى مالي طلبة المشرق الذين درسوا في مصر، أو جلبه منسا سليمان نفسه عند عودته من الحج، كما انتشر أيضا الخط المغربي الذي انتقل إلى مالي عن طريق التجار المغاربة.[29] فمازالت المخطوطات التي احتفظت بها مدينة تنبكتو إلى اليوم والتي تعود إلى فترة القرن التاسع للهجرة، تشهد على انتشار هذا الخط .

ولقد ذكر السعدي قائمة طويلة للعلماء اللغة الذين كانوا مقيمين أو يدرسون في تمبكتو، منهم الشيخ يحي التدلسي، وأبو عبد الله أند غمحمد بن الفقيه النحوي بن أندغمحمد إمام مسجد

---

(22) معتز ياسين: المرجع السابق.
(23) نفسه.
(24) قداح نعيم:المرجع السابق، ص 156.
(25) المصدر السابق، ص122.
(26) العمري، المصدر السابق،ص 125.
(27) قداح نعيم:المرجع السابق،ص156.
(28) نفسه، ص 156. - بوعزيز (يحي):تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية. دار هومة، الجزائر، 2001م،ص199
(7) قداح (نعيم): المرجع السابق، ص 207.
(1) المصدر السابق، ص 29.

سنكري، وهو شهير في علم اللغة العربية، ومنهم السيد أبو العباس أحمد بن عثمان بن عبد الله بن أبي يعقوب، وهو عالم فقيه ولغوي نحوي متقن في علوم الأدب[30].

كما استخدم الماليون مهنة الوراقة، وهي مهنة نسخ وبيع الكتب وهي من المهن المرتبطة بالثقافة العربية، فأصبح الماليون يكتبون لغتهم المالنكية بالخط العربي.[31] بل عرفت لغة المالنكي وهي لغة عائلة كيتا وسكان النيجر الأعلى والتي أصبحت اللغة الرسمية لإمبراطورية مالي، دخول عدة كلمات عربية إلى قاموسها اللغوي، ونأخذ على سبيل المثال كلمة "حورايا "وهي الحرية، و"باراكا" وتعني البركة أو القوة، وكلمة "تنين"التي يقصد بها يوم الاثنين[32].

3. نشر المذهب المالكي:

وكانت أول هذه التأثيرات انتشار المذهب المالكي، الذي كان مذهب المغاربة بامتياز، وهنا يظهر لنا جليا التأثير المغربي بحكم الموقع الجغرافي وتأثير التجار المغاربة من الصنهاجيين في نظرائهم الماليين، بالإضافة إلى دور المرابطين في نشر المذهب السني المالكي. كما كان الأزهر وطلبته دور كبير في نشر هذا المذهب في إمبراطورية المندينغ، فقد كان الأزهر يقوم على المناداة بمذهب السنة[33]، كما أن مدرسة ابن رشيق التي بناها الكانميون وكان يدرس فيها الطلبة الماليون كانت تدرس الشريعة وفق المذهب السني المالكي[34]. فلقد كان منسا موسى مالكيا متشددا، حيث حرص عند عودته من الحج على جلب معه الفقهاء والكتب على مذهب الإمام مالك[35].

ولما حج أخوه من بعده الملك منسا سليمان سنة 1351م /751 هـ، قرر استغلال فرصة تواجده بمصر لشراء عدد من الكتب لتدعيم مكتبات الإمبراطورية، وخاصة تلك الموجودة بمدينة تمبكتو وذلك لتعويض ما خربه وحرقه الموسي خلال هجومهم عليها، فكانت الكتب التي جلبها تضم كتب المذهب المالكي[36]. وعند وصول منسا موسى إلى القاهرة خلال رحلته إلى الحج سنة 724هـ /1324م، أرسل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون المهمندار في طلبه، وطلب منه السجود وتقبيل الأرض رفض منسا موسى ذلك وقال للترجمان الذي كان يكلمه:«أنا مالكي المذهب، ولا اسجد لغير الله» [37]. وبالتالي فقد أصبح المذهب السني المالكي هو المذهب الرسمي للدولة المالية، ومعتنقيه يدعون "توري" بلغة المالنكي[38].

---

(2)السعدي، لمصدر السابق،ص 208.

(3) Camara(Mamadou) : Parlons Malinké. Editions: L'harmattan, Paris, 1999, p20.

(33) شوقي عطاء الله الجمل: الأزهر و دوره السياسي و الحضاري في إفريقيا. الهيئة المصرية العامة للكتب، مصر، 1988م.، ص12.

(34) القلقشندي: المصدر السابق،ص281.

(35) العمري:المصدر السابق، ص107.

)**36**(Yattara el Mouloud :Op.Cit.

(37) المقريزي: الذهب المسبوك، ص142.

(38) ابن بطوطة: المصدر السابق،ص 680.

ورغم هذا الحرص الذي كان يبديه منسا موسى على التمسك بمذهب مالك ومحاولة إشهار ذلك خلال سفرياته إلى الخارج، إلا أن مملكة مالي لم تكن بمعزل عما كان يعرفه العالم الإسلامي وخاصة المغرب الإسلامي من اختلاف مذهبي، حيث يذكر لنا ابن بطوطة بأن الإمبراطورية المالية التي زارها في عهد منسا سليمان، كان يوجد بها المذهب الخارجي لكن يبدو أنه لم يكن بالأهمية البالغة، بحيث يكون قد اقتصر على قرية زاغزي التي يسكنها التجار السوننكي من الونغارا ومعهم جماعة من البيضان يتمذهبون بالمذهب الإباضي ويعرفون بصغنغو[39].

وعموما فإننا لم نصادف أي مصدر تكلم عن وجود المذهب الإباضي في مملكة مالي باستثناء ابن بطوطة، كما أنه يظهر من شهادة هذا الأخير أن هذا المذهب اقتصر وجوده على قرية صغيرة مما يؤدي بنا إلى الاعتقاد بأن سكان هذه القرية كانوا يشكلون بقايا تأثير الفقهاء الإباضية من التجار الذين كان لهم نشاط قوي خلال القرن الخامس للهجرة/11م، والذين كان لهم أثر بارز في اعتناق ملوك مالي الأوائل للإسلام. لكن نشاط أولائك الدعاة الإباضية كان خلال القرن الرابع والخامس للهجرة/10و11م، وهي فترة لم يكن الإسلام قد تغلغل في المجتمع المندي، وكان إسلاما سطحيا، بينما شهد القرن الثامن للهجرة وهو عصر منسا موسى وأخوه سليمان نهضة ثقافية وتفتح مالي على العالم الإسلامي، وخاصة المراكز العلمية المالكية السنية كالأزهر وفاس.

لهذا نقول بأن منسا موسى قد افلح في جعل المذهب السني المالكي، هو المذهب الرسمي للدولة المالية، ونشير إلى أنه رغم تردد منسا موسى على مصر، والعلاقات التي كانت تربطه بعلمائها، وملوكها، إلا أنه لم يتأثر بالمذهب الشافعي الذي كان مذهب المماليك بمصر، وهو ما يُفَسَّر بمدى تأثير العلماء والفقهاء المغاربة في الثقافة الدينية لمالي، ومدى تمسك ملوك مالي بالمذهب المالكي، بالإضافة إلى محاولة إظهار استقلالهم المذهبي عن مصر[40]، بينما لم تتكلم المصادر عن أي أثر للمذهب الشيعي في مملكة مالي.

4 ـ انتشار التأليف و القراءة في مملكة مالي:

شهدت مملكة مالي نشاطا تأليفيا واضحا، ساهم فيه للعلماء الذين عجت بهم جامعاتها في مختلف الميادين، و هناك أيضا تآليف أخرى لقيت رواجا في السوق العلمية المالية و انتشرت منها عقائد السنوسي التي لاقت قبولا واهتماما كبيرين من طرف الطبقات المتعلمة في مالي، حتى أصبحت تذكر في معظم المقدمات الكلامية لعلم الكلام، حيث كان الشيخ الشيخ السنوسي يحظى بمكانة عظيمة لدى علماء تنبكتو و جني، وكان يعد مؤسس المدرسة الأشعرية التي اشتهرت بالاجتهاد في تلمسان، لهذا عكف علماء وطلاب مالي على دراسة مصنفات السنوسي فنالت اهتمامهم وحازت على إقبال كبير عندهم، فكانت كتبه تعتمد في الحلقات العلمية في جامعات جنجربير وسنكاريه، فحفظوها و فهموها و نسخوها، و لعل أكثر كتبه انتشارا عندهم هي العقيدة الصغرى المساة بـ **"أم البراهين"** التي زودوها بشروح ومختصرات وتعليقات، كان أشهر من درّسها في تنبكتو الفقيه محمد بن محمود بن أبي بكر

---

(39) نفسه، ص 680.

(40) الشكري (أحمد)، الإسلام و المجتكمع السوداني(امبراطورية مالي) 1230 - 1430، المجمع القافي، ابو ظبي، الامارات العربية المتحدة، 1999م، ص 229.

الونكري المعروف باسم بغيغ، و أخذها عنه تلميذه أحمد بابا حيث قال في ذلك : « **وختمت عليه...صغرى السنوسي »، وقرا عليه "الكبرى" وشرحها في قوله: « وحضرت عليه الكبرى وشرحها**»[41]، ومن العلماء الذين وضعوا عليها شرحا نجد أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت تحت عنوان "شرح السنوسية الصغرى"، و أحمد بابا التنبكتي بعنوان «شرح الصغرى للسنوسي» [42].

كما انتشرت في تنبكتو مصنف محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني في علم المنطق و خاصة مصنفه المسمى: «منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب» ،الذي كان يدرس للطلبة الماليين في حلقات التدريس بتنبكتو ، والتي عرفت عند علماء تنبكتو بمنظومة المغيلي في المنطق[43]، و عرفت **أيضا باسم رجز المغلي في المنطق** [44]**، حيث كان يدرسها الفقيه محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري ودرسها أحمد بابا التنبكتي على يد شيخه حيث يقول: «وقرأت عليه رجز المغلي في المنطق»** [45].

كما ترك كتابا غاية في الأهمية و هو كتاب ما يجب على الملوك و السلاطين والذي يعد مرجعية سياسية لملوك السودان كان قد قدمه لسلطان كانو محمد رمفة، و تضم ثمان أبواب وهي مجموعة من التوصيات و المبادئ التي لابد أن يتبعها اي حاكم يحكم بالشريعة الإسلامية[46]، حيث كتبه بطلب من سلطان مملكة كانو في بلاد الهوسا الذي زاره المغيلي وقرَّبه إليه عين كمستشار خاص للملك، و طلب منه السلطان محمد رمفا مجموعة من النصائح التي تجيز للحاكم ردع الناس عن الحرام، فكتب إليه رسالة تضم مجموعة من النصائح التي تضم تنظيم شؤون الإمارة و الحكم[47]. ولقد انتشرت هذه الوصايا وهذه الرسالة في كامل بلاد الساحل وغرب إفريقيا لدى الحركات الإسلامية التي ظهرت خلال العصر الحديث و اتخذها زعماء هذه الحركات دستورا لهم.

كما لقي كتاب أبي العباس يحي الونشريسي التلمساني (المتوفى سنة 914ه /1508 م) المعروف بـ «المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب» رواجا في منطقة الساحل وبالخصوص تنبكتو، حيث قام احمد بابا التنبكتي بترتيبه حسب المواضيع و الأبواب[48].

و يذكر عبد الرحمان السعدي ان مدينة جني و هي إحدى مدن مالي المشهورة، خلال القرن السادس للهجرة كانت تضم 4200عالم [49]، و رغم ان هذا العدد مبالغ فيه لكننا

(**41**) **أحمد بابا التنبكتي**، كفاية المحتاج من ليس في الديباج، ج2، تحقيق: محمد مطيع، المغرب: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2000م، ص282

42 نفسه، ص602.

(**43**) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص142.

(**44**)نفسه، ص606.

(**45**) نفسه، 602.

(**46**)انظر : **محمد بن عبد الكريم المغيلي**، تاج الدين فيما يجب على الملوك و السلاطين، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، الطبعة الاولى،دار ابن حزم للنشر و التوزيع، بيروت ، 1994م.

(**47**) **مبروك مقدم**، مرجع سابق، ص37.

(**48**) **أحمد بابا التنبكتي**، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 602.

(**49**) **تاريخ السودان**، مصدر سابق، ص 11.

نرجح انه هذا العدد المقصود به حملة القران والراتبون و القراء، وهو عدد لا يستهان به ويعبر عن ارتفاع عدد المتعلمين في مدن مالي خلال هذه الفترة.

5. دور مالي في العمران الإسلامي .

استطاع ملوك مالي ترك بصماتهم الفنية في المجال العمراني، حيث تميزت عن غيرها من الممالك الإسلامية في إفريقيا في هذا المجال، فتمكنوا من وضع أسس الفن المعماري السوداني، وهو الفن الذي يجمع بين الطراز الإسلامي المغربي و يحتفظ بالخصوصيات الإفريقية.

فالطراز المعماري السوداني القديم كاف بسيطا تميزه البناية ذات السقف المستدير، كذات الشكل الهرمي المغطى بالقش، أما الحيطان فكانت تُبتنى بالطوب، ونادرا ما كانت تتخللها الحجارة، كما توجد بالقرب من البيت زريبة لتَّربية الماشية [50] .فكانت العاصمة نياني في عهد سونديانا كيتا مبنية مساكنها بالطين، وكانت سقفها مصنوعة من القصب . وحتى مدينة تمبكتو كانت في البداية مبنية بعيدان الأشجار كحشائش النباتات، أما في مراحل أخرى من تاريخها قبل أن يحكمها منسا موسى كانت تبنى من شجر الصيان و هو نوع من الأشجار ذات الجذوع الغليظة، أو مبنية بأوتاد مخلوطة بالطين ومسقوفة بالتبن [51] .

لكن بوصول منسا إلى الحكم أحدث ثورة حقيقية في المجال العمراني المندي خاصة والسوداني عامة، فخلال تواجده بمكة المكرمة لأداء فريضة الحج سنة 1324 ، تعرف على مهندس وشاعر أندلسي هو أبا إسحاق الساحلي المدعو بالطويجن ، فاصطحبه معه إلى مالي، فقام هذا الأخير الذي كان بارعا في الهندسة والتصميم بإحداث ثورة في الطراز المعماري السوداني [52] .وكان مع الوفد المرافق لمنسا موسى خلال عودته من الحج شخص يدعى المعمر أبو عبد الله بن خديجة الكومي الصنهاجي، و هو أمير من ولد عبد المؤمن بن على زعيم الموحدين، كان قد التقاه في طريق عودته من الحج، بمدينة غدامس [53] وعند مرورهم بمدينة غاو عاصمة سنغاي التي أصبحت تابعة لإمبراطورية مالي، أبدى المعمر اندهاشه لوضعية مسجدها المتَّدنية، والتي كانت تشبه كل منازل البلد في تلك الفتَّرة والمتمثلة في كوخ سقفه من القش، حيث ذكر العمري بأن مدينة نياني كانت في ذلك الوقت مبنية كل سقوفها بالأخشاب كالقصب وغالب سقوفها قباب أو جلمونات كالقباب، وأرضها تراب مرمل[54] ، لذلك نبه منسا موسى إلى هذه البناية التي لا ترقى لمكان يعبد فيه الله، و لا ترقى إلى مقام الإمبراطور ايضا، ذلك أن الطراز المعماري السوداني البسيط كان مايزال يطغى على بنايات و مساجد المملكة، فالمساجد كانت قليلة و لا توجد في كل مكان، وتفتقد إلى اللمسات الفنية للعمارة، فأغلب أمكنة الصلاة بمدن المملكة كانت عبارة عن مربعات أو

---

(50) عبد القادر زبادية :الحضارة العربية ك التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989 ، ص5 .

(51) Raymond Mauny, Les siècles obscurs de l'Afrique noire. Librairie Fayard, 1970, p160.

(52) أبو العباس الناصري السلاوي :الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق و تعليق :جعفر و محمد الناصري ،مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1954 ، ج2 ، ص ص75 .

(53) عبد الرحمان ابن خلدون ، كتاب العبر .مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر ،بيروت، لبنان، سنة 2000م، ج6 ، ص 267.

(54) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، المصدر السابق، ص 111.

دوائر رملية تفصل الطريق العمومي بإطار من الحجارة، وتدعى (باتوما)، وكانت هناك مصليات تأخذ شكل كوخ كبير من القش[55]. وطلب هذا الأمير الموحدي من أبي إسحاق الساحلي لبناء جامع أكثر رخاء ورونق، فطلب هذا الأخير بأن يحضروا له المواد والسلع والأيدي العاملة التي يتطلبها هذا الإنجاز، فقام ببناء أول مسجد بالطين في غاو ذا سقف يحتوي على سطح، ومنارة ذات شكل هرمي، وهو محراب مبني بالآجر والطين المشوي بالنار، وأحزمة ظاهرة أصبحت متواجدة أينما وجد المسلمون في السودان.[56]

وبهذا ظهر طراز معماري جديد عرفت مالي من خلاله مالي بناء المساجد الأنيقة التي تذكرنا بتلك الموجودة في الجنوب الجزائري والمغربي، والقصور والمنازل التي كانت مأوى قادة البربر في جبال الأطلس. فهذا الطابع المعماري الذي جسده الساحلي ظهر جليا مع بناء القبة المربعة الشكل بالقصر الملكي بمدينة نياني، فلقد كان القصر الملكي لعائلة كيتا مكون من مجموعة من المنازل دائرية الشكل مرتبطة مع بعضها البعض عن طريق سور للدعم، وكلها تؤدي إلى ناحية الجنوب أين توجد ساحة عمومية كبيرة، وهي المكان الذي كان يستقبل فيه الملك رعيته، كما توجد قاعة أخرى ذات شكل مثلثي وهي خاصة باستقبالات الملك الخاصة، وهي القاعة التي أضافها المهندس أبو الساحلي، وهي البناية الوحيدة المبنية بالحجارة، عكس البنايات الأخرى التي كانت مبنية بالطين.[57]

ولعل أهم ما أبهر الماليين والمؤرخين العرب الذين كتبوا عن الموضوع هو تلك القبة المربعة الشكل التي غطت قصره وحضرة ملكه، والتي استفرغ فيها أبو إسحاق الساحلي كل موهبته وإجادته، حيث زينها بالكلس وأنواع الأصباغ المشبعة، والنقوش والتخريم، فكانت من أجمل المباني التي بنيت في مالي وأتقنها، ونالت دهشة منسا موسى واستغرابه، حيث لم تكن إمبراطوريته تعرف هذا الفن من قبل، لذلك كافأ مهندسه باثنتي عشرة ألف مثقال من التبر (الذهب المسحوق) بالإضافة إلى هدايا أخرى وصلات سنية.[58]

إن أوصاف هذه القبة تعبر عن ميلاد نموذج جديد لطابع للعمارة المغربية التي اشتهرت بقبابها ومآذنها المربعة في عهد الزيانيين والمرينيين خاصة، إذكانت فاس والأندلس خلال العهد الميني تتخذ قبابها شكلا مربعا، و تحتوي على زخارف، والتي لم تكن موجودة من قبل في المغرب،[59] ومن هنا نستطيع أن ندرك مدى التأثير الذي تركه هذا المهندس المعماري الأندلسي الذي حل بفاس وعاش بالأندلس، والذي حمل فنه معه إلى بلاد السودان،و بالتالي عرفت مالي الفن الإسلامي من باب العمارة.

لما رأى منسا موسى إنجاز الساحلي في غاو، طلب منه إعادة إنجاز مثل هذا الإبداع في مدينة تمبكتو التي كانت مجرد مخيم بسيط للبدو من الطوارق خلال القرن الخامس للهجرة

(**55**)قداح نعيم: المرجع السابق، ص112 .

)**56**(Delafosse(Maurice) et Mouralis (Bernard) : Les Nègres. Editions l'harmattan, Paris, 2005, pp 22 et23 _ Delafosse(Maurice) : Haut Sénégal-Niger, tome2, p189.

)**57**(Ogunsolo(John Igué), Les villes précoloniales d'Afrique noire. Editions Karthala, Paris, 2008, p36.

(**58**)ابن خلدون:المصدر السابق، ج6 ،ص 268 ـ السلاوي:المصدر السابق،152 .

(**59**)بن قربة(صالح): المئذنة المغربية الأندلسية في العصور الوسطى. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص ص 99، 100.

/11م، وبقيت مجرد نقطة تتزود فيها قوافل الملح بالماء، وذلك رغم موقعها الإستراتيجي في أعلى منعطف النيجر، وبقيت مجهولة، ولم تثبت بناياتها إلى غاية القرن التاسع للهجرة /14م.[60]

فقام الطويجن بعمل كبير في هذه المدينة التي سوف تصبح بفضله أشهر مدينة في السودان الغربي، فبدأ بإعادة بناء المسجد القديم لتمبكتو ليكون أكثر ملاءمة لإمبراطورية كبيرة كمالي، فبنا في موضعه المسجد الكبير بالآجر وهو أمر لم يكن معروفا لدى السودانيين قبل ذلك [61]، فأقام له صومعة من خمسة صفوف والقبور لاصقة بها من خارجها في جهتي اليمين.[62]

وقد نقل المهندس الأندلسي هذا النموذج المعماري عن المغاربة الذين كانوا يقيمون القبور بالقرب من المساجد أو بداخلها خاصة أضرحة العلماء والصالحين.[63] وقد أطلق على هذا المسجد الكبير فيما بعد اسم جنجبر بر(أي المسجد الكبير)، وظل قائما لمدة ثلاث قرون، بحيث ما تزال بعض أسسه قائمة إلى غاية الوقت الحاضر بمدينة بتمبكتو.[64] حيث لخص فيه أبو إسحاق الساحلي الطراز السوداني في العمارة، كما بنا الإقامة الملكية المعروفة بالمادوغو (Madougou) وتعني أرض السيد في أقصى شمال غرب تمبكتو، بالإضافة إلى بنائه لأسوار المدينة التي يبدو أنها بنيت من أجل حمايتها بعد تعرضها لهجمات الموشي.[65]

وزود وسط مدينة تمبكتو بساحة كبيرة لم يعرف السودان الغربي لها مثيلا من قبل ولم توجد في أي بلد سوداني آخر خلال تلك الفترة، أو قبلها[66]،مما يؤكد أصالة العمارة التي أدخله منسا موسى وحداثته بالنسبة للسودان الغربي. وازداد اهتمام منسا موسى بعد ذلك ببناء المساجد، وخاصة بعد حجه، حيث أنشأ خلال سفره إلى الحجاز مسجدا في كل مدينة مر بها من مدن السودان، منها مسجد تمبكتو الذي ذكرناه، ومسجد دوكوري، كوندام، ديري، وانكو ومسجد باكو.[67]

(**60**)السعدي: المصدر السابق،ص ص 20 ،21 .

)**61**(Cornevin(Robert et Mariane):Histoire de l'Afrique, des origines à la deuxième guerre ondiale,p164.

(**62**)السعدي: المصدر السابق، ص 87 .

(**63**) يذكر عبد الرحمان السعدي بأنه لما قام الفقيه القاضي العاقب بن القاضي محمود بتجديد المسجد الكبير بين سنتي 991 و 995هـ/1583 و1587م وبنا مكانه مسجدا آخر، خرب جميع تلك القبور وسواها مع جميع القبور بالأرض من كل جهة صيّر الجميع مسجدا، وزادها زيادة كبيرة. (تاريخ السودان، ص 56).

) **64**(Cornevin(Robert et Mariane):Op.Cit, p164.

يذكر الظابط الفرنسي فيليكس دوبوا(Felix Dubois) الذي زار تمبكتو سنة 1896م بأنه رغم أن مساحة هذا المسجد ازدادت واتسعت خلال القرن العاشر للهجرة/16م مع تزايد عدد سكان تمبكتو إلا أنها في الحقيقة لا يمكن أن نصفها بالعمل الفني الكبير، إذ تعد مجرد أسوار متفاوتة الطول والعرض والارتفاع ولا ترقى إلى مستوى حتى تلك القبور و الأضرحة التي أنشئت بجوارها والتي تتميز بانسجام كبير تذكرنا بجمال التزيينات التي بني بها جامع جني القديم.
Dubois (Felix):Timbuctoo the mysterious.Translated from the frensh by : Diana White, New York, 1896, p275.

)**65**(Ogunsolo(John Igué) ,OpCit, p41.

)**66**(Dubois(Felix) ,Op Cit,p275.

(**67**)Mahmoud kati ,OpCit, p56.

بعد ذلك وجه منسا موسى جهوده العمرانية إلى مدينة جني الواقعة عند منعطف النيجر، والتي كان أهلها ينتمون حسب التقسيم الطائفي الذي وضعه سونديانا إلى طبقة الحرفيين، فكانت هذه المدينة تعج بالبنائين الذين أتقنوا عملية البناء المعروفة بالبانكو(Banco) باحترافية كبيرة،[68].

كما ظهر خلال هذه الفترة مهندس مغربي آخر هو معلوم إدريس المراكشي الذي عاصر أبا إسحاق الساحلي[69] الذي يكون منسا موسى قد أوكل له مهمة بناء مدينة جني، وبالتالي يكون قد أضاف لها اللمسة المغربية للعمارة السودانية التي كان قد بدأها المهندس الغرناطي. فامتزجت في جني عبقرية تصميم إدريس المراكشي مع احترافية بناؤوا جني، لذلك تميزت بنايات جني بالأناقة والجمال والإتقان، حيث تكونت المنازل فيها من طابق أول مؤلف من عدة أروقة، وتحتوي على مخادع صغيرة أين يوضع فيها الماء داخل جرات من الطين، وساحة صغيرة على مستوى واحد هذا الطابق الذي لا تطل عليه الشمس إلا من هذه الجهة، أما الطابق الأرضي فإنه موزع بنفس الطريقة، ويستعمل كمخزن لحفظ الأرز والذرة البيضاء، كما يستخدم كإسطبل للحيوانات. وهذا المخزن يؤدي إلى ساحة أخرى توجد خلف المنزل، ويتم الصعود من الطابق الأرضي إلى العلوي عن طرق سُلَّمين واحد منهما يوجد عند المدخل والآخر في الساحة بالداخل.

أما السقف فكان مغطى بقطع خشبية متباعدة عن بعضها بمسافات معينة ويغطيها الطين لتشكل سطحا صغيرا محاط بحاجز مرتفع قليلا، ويتم الصعود إلى هذا السطح عن طريق سلم من عشر درجات[70].شخص يدعى المعمر أبو عبد الله بن خديجة الكومي الصنهاجي، و هو أمير من ولد عبد المؤمن بن على زعيم الموحدين [71].

وكان عهد منسا سليمان شقيق منسا موسى هو أيضا زاخرا بالانجازات العمرانية، فبنا المساجد العادية والمساجد الكبيرة، ورفع المآذن، فاقد كان حريصا على صلاة الجماعة في المساجد وجعلها فرضا على الناس، فقد ذكر ابن بطوطة بأنه في عصر هذا الملك كان الناس مواظبين على الصلوات وملتزمين بأدائها في جماعة، حتى إذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام.[72]مما تطلب بناء المزيد من المساجد، كما وسع مدينة نياني العاصمة إلى أن أصبحت مساحتها تبلغ حوالي بريد طولا وعرضا،[73] وجعل بناياتها مكونة من طبقات من الطين تشبه أسوار وحدائق دمشق، وسقفها يتخذ شكل قبة أو سنام جمل.[74]

(**68**)Niane djibril temsir , Le soudan occidental,p134.

(**69**) يعتقد الأستاذ عبد القادر زبادية بأن معلوم إدريس هذا كانأحد مساعدي الساحلي. (مملكة سنغاي في عهد الاسقيين.الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1971، ص 107).

) **70**(Niane djibril temsir : Le soudan occidental, p130.

(**71**)قداح نعيم: المرجع السابق، ص147 .

(**72**)**المصدر السابق**، ص 690 .

(**73**)البريد هو وحدة قياس قديمة لقياس المسافة تقدر بـ 23كيلومترا

Mauny (Raymond) : les siècles obscurs, . Librairie Fayard, 1970. p160.

(**74**) قداح نعيم، المرجع السابق، ص 150 .

وعموما فإن الجهود التي بذلها الملك منسا موسى، بجلب هذا المهندس الأندلسي والذي كان بمثابة وزيره للعمران والفنون الجميلة حسب دولافوس ومورااليس،[75] قد أفرزت طرازا معماريا يوافق بين الطراز المغربي الموريسكي مع شكل العمارة السودانية البسيطة، وبالتالي ظهر مصطلح ما يعرف بالفن المعماري السوداني الذي اقترن بمنسا موسى ومهندسه الأندلسي، وهو في الحقيقة ليس طرازا سودانيا خالصا وإنما يستمد خصائصه من الحضارات المتوسطية القديمة والوسطى والذي ما يزال موجودا في جنوب الصحراء الغربية وجنوب المغرب الأقصى.[76]

)**75**(**Delafosse(Maurice) et Mouralis (Bernard)** : Les Nègres, Editions l'harmattan, Paris, 2005. p23.

) **76**(**Trimingham (Spencer)** : The history of Islam in west Africa. Oxford university press, London, 1963, p69.